

البرتغاليون

بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن السادس عشر

بقلم الدكتور رأفت غنيمى الشيخ

كانت البرتغال جزءاً من الدولة الإسلامية بالأندلس ،
ولكن الأجزاء الشمالية منها هي التي إستخلصتها إمارة
قشتالة المسيحية لنفسها وبقيت الأجزاء الجنوبية خاضعة
للمسلمين بالأندلس ، وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي
تحررت الأجزاء الشمالية من سيطرة قشتالة على يد ملكها
ألفونسو الأول Alfonso 1 في عام ٤٨٨ هـ الموافق لعام
١٠٩٥ م .



المسلمين ، كما نجح ألفونسو الثالث
عام ٥٤٦ هـ الموافق لعام ١١٥١ م .
في أخذ مناطق الغرب من البلاد التي

وقد نجح هذا الملك عام ٥٤٠ هـ
الموافق لعام ١١٤٧ م في أخذ مدينة
لشبونة عاصمة البرتغال الحالية - من



عرفت فيما بعد بأسم البرتغال وسميت هذه المناطق بالغرب لأنها الجزء الغربي من الأندلس الإسلامية ..

وأما أسم البرتغال فيرجع الى ما أطلقه المؤرخون على المناطق الشمالية الغربية من الأندلس باسم «بورتوكاليس» نسبة الى ميناء بورتس كالي - أي ميناء كالي والمعروف الى اليوم بأسم أبورتو ، ومن هنا جاء أسم البرتغال من بورتوجال أو بورتوكال Portugal التي اكتملت مقوماتها كدولة وطنية حديثة ذات حكومة مركزية قوية أخذت من مدينة لشبونة Lisboa عاصمة لها وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ..

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادي صارت البرتغال - كما يذكر سردار بانيكار نصيرة المسيحية وراعتها ضد الإسلام والمسلمين .. فقد كان الأيبيري المخلص لدينه المتفاني في حب وطنه أسبانيا كان أو برتغاليا يعد القتال ضد المسلمين ضرورة ماسة ويراه خليطا يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية .^(١) ولذلك لا نعجب أن نجد البرتغال أسبق الدول الأوروبية في الدوران حول أفريقيا لتطويق المسلمين من الخلف وهي الحركة المعروفة بحركة الكشف الجغرافية والاستعمار ..

وفي بداية القرن الخامس عشر أصبحت البرتغال تتمتع بالإستقرار السياسي والإقتصادي تحت حكم الملك

يوحنا الأول John I أحد ملوك أسرة أفيز Avis فكلف ابنه الثالث هنري Henry بغزو مدينة سبته المغربية يدعمه رجال أقوياء من التجار المغامرين والبحارة الذين رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية التقليدية المألوفة آنذاك وأخذوا يسرون في طريق الإستعمار يملؤهم الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم الحصون والقلاع .^(٢)

ورغم أن نشاط المستكشفين البرتغاليين كان موجها في الأصل الى البحث عن طريق موصل الى الهند حيث منابع تجارة التوابل لانتزاعها من أيدي التجار المسلمين وتوصيلها الى أوروبا عن طريق البلاد الإسلامية الواقعة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط ، فان أفريقيا كانت هذا الطريق الذي يبحث عنه المستكشفون البرتغاليون طالما أراد هؤلاء تجنب الإصطدام بالمسلمين المسيطرين على طرق التجارة التقليدية من الهند الى أوروبا ..

ويرجع الى البرتغاليين الفضل في كشف السواحل الأفريقية المطلة على المحيطين الأطلسي والهندي ، إذ بدأت عملية الكشف البرتغالية بنزول الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال يوحنا الأول الى مدينة سبته المغربية عام ١٤١٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ ومن هذا المركز الإستعماري البرتغالي الأول في الساحل الأفريقي استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول أفريقيا التي انتهت بنجاح الملاح

البرتغالي فاسكو دي جاما في الدوران حول الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية الذي اطلق عليه رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ م . ثم واصل سيره في المحيط الهندي بمعرفة ملاح عربي من رأس الخيمة هو أحمد بن ماجد الى أن وصل الى ساحل الملبار في شبه القارة الهندية حيث بدأت أولى خطوات تأسيس امبراطورية برتغالية في الشرق ..

ومما تجب ملاحظته أنه لم يكن هدف البرتغاليين من كشف السواحل الأفريقية إقامة مستعمرات بل إقامة محطات ومراكز عند مصاب الأنهار ، ومن ثم لم يهتموا كثيرا بالتوغل داخل القارة ، وإن اهتموا بحماية مراكزهم ومحطاتهم ضد إغارات الأفارقة وكانت هذه المراكز والمحطات تقام في مناطق تصلح لرسو السفن ويمكن فيها إقامة الحصون والقلاع والمخازن والمحطات البحرية التي تحتوي على مساكن للجنود البرتغاليين المكلفين بحراسة محطات ومساكن التجار البرتغاليين وخدمهم من الأفارقة .^(٣)

ولنا أن نتساءل عن الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق الدول الأوروبية في مجال الكشف الجغرافي والاستعمار ، وفي الاجابة على هذا التساؤل نذكر النقاط الآتية :

١ - سادت الروح الصليبية في البرتغال وأصبحت محركا للسياسة البرتغالية خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مما أعطى البرتغال زعامة على العالم المسيحي في

غرب أوروبا في الحرب ضد المسلمين .
٢ - وقوع البرتغال متاخمة لامارات إسلامية في الاندلس وفي شمال أفريقيا مما جعل الحرب مستمرة بين الامارات المسيحية والامارات الإسلامية .

٣ - وقوع البرتغال على شاطئء المحيط الاطلسي على مقربة من القارة الأفريقية أعطاه أهمية استراتيجية وتجارية حيث كانت عاصمتها لشبونة مركزا للتجارة الهندية والأفريقية المستوردة الى أوروبا .

٤ - استعانة البرتغال بملاحين من جنوة نقلوا خبراتهم الملاحية البحرية الى البرتغاليين الى جانب العلماء والجغرافيين الذين استفادت منهم البرتغال في وضع المصورات والخطط لإنشاء امبراطورية برتغالية في الشرق تبدأ بأفريقيا ، وأصبح الملاح البرتغالي الى جانب إتقانه الملاحة محاربا قويا خصوصا في القارة الأفريقية المسلح بأبناؤها بأسلحة بدائية أمام بارود البرتغال ومدافعهم .^(٤)

وعندما حصل البرتغاليون من البابا «مارتان الخامس» على مرسوم باكتشاف الطريق الى الهند وشن الحرب ضد المسلمين عام ١٤٥٤ م زمن رحلات الأمير هنري الملاح أعلنت البرتغال امتلاكها لجميع الشواطئ الأفريقية جنوب مراكش ، في الوقت الذي كانت فيه أسبانيا تنشط في مجال الكشف والاستعمار في العالم الجديد مما أدى الى حدوث صراع بين الطرفين

لامتلاك الشواطئ والجزر
الأفريقية ..

وقد استمر الصراع البرتغالي
الأسباني حتى عقدت بين الطرفين
معاهدة «ترود سيلاس» Trodisellas
عام ١٤٩٤ م بمساعي بابا روما نصت
على امتلاك البرتغال جميع الأراضي
الأفريقية التي تصل إليها ابتداء من
جنوب مراكش حتى الهند ، وأن تظل
أسبانيا تمتلك جزر كناريا ، وأن
تعترف البرتغال بمصالح أسبانيا في
مراكش واستعمارها للعالم
الجديد .^(٥)

ويمكن أن نحدد مظاهر الكشف
والاستعمار لأفريقيا والهند في النقاط
الآتية :

أ - لم تكن أفريقيا تمثل هدفا عند
البرتغاليين يصلون إليه ويحققونه ،
وإنما كانت وسيلة يصلون عن طريقها
إلى تحقيق هدفهم الأسمى وهو احتكار
تجارة الهند والسيطرة على البحار
الهندية وشواطئها ، وانحصر
الإهتمام البرتغالي بأفريقيا في تأمين
طريق الوصول إلى البحار الهندية
بإقامة حصون ومحطات على
الشواطئ الأفريقية الغربية
والشرقية .

ب - لم يكن هدف البرتغاليين في
البداية إنشاء مستعمرات بل إقامة
محطات أو مراكز مسلحة ، ولذلك لم
يهتموا كثيرا بالتوغل من الساحل إلى
الداخل سواء بالنسبة للقارة الأفريقية
أو للهند أو حتى للخليج العربي ، ومن
ثم اختاروا أماكن تصلح لرسو السفن

ويمكن إقامة الحصون والقلاع
والمخازن والمحطات البحرية التي
تحتوى على مساكن للجنود البرتغاليين
المكلفين بحراسة المحطات .

ج - اعتنق البرتغاليون فكرة أن
تجارة الهند لن تخلص لهم وحدهم إلا
بالقضاء على التجار العرب والمسلمين
في تلك الجهات ، ومن ثم فقد هاجموا
ودمروا جميع المدن العربية
والإسلامية المزدهرة على الشاطئ
الشرقي لأفريقيا وفي الشاطئ الغربي
للهند وفي شواطئ الخليج العربي ،
وأقاموا مكان هذه المدن محطات
ومراكز خاصة بهم .^(٦)

وبعد عودة دي جاما إلى لشبونة في
شهر سبتمبر عام ١٤٩٩ م بعد رحلة
استغرقت حوالي عامين ، بدأت
حملات البرتغاليين الحربية بقصد
الغزو والاستعمار بعد مرحلة الكشف
الجغرافي ، ومن ثم أرسل الملك عما
نويل ملك البرتغال حملة بقيادة بدرو
ألفاريز كابرال Pedro Alfares
Cabral مكونة من ٢٢ سفينة غادرت
لشبونة في ٩ مارس عام ١٥٠٠ م
والذي وصل إلى الهند واصطدم مع
الزامورين حاكم قاليقوت أو
كاليكوت ..

تم تتالت الحملات الإستعمارية
البرتغالية فكان منها حملة فاسكو دي
جاما الثانية في مارس سنة ١٥٠٢ م
مكونة من ٢٠ سفينة ، والتي اتخذت
مواقف عدائية من المدن والإمارات
بشرق أفريقيا وبالهند حتى أنه هاجم
سفينة حجاج مسلمين وأحرقهم

بسفينتهم في عرض مياه المحيط الهندي ، ثم عاد الى لشبونة في ديسمبر عام ١٥٠٣ م حاملا ثروة عظيمة سلبها من السفن العربية والإسلامية ..

ثم جاءت حملة الفونسو البوكيرك التي غادرت لشبونة في ٦ أبريل ١٥٠٣ م بهدف الانتقام من الزامورين حاكم قاليقوت ، وقد تمكن البوكيرك من تنفيذ مهمته ، ونتيجة لهذه الحملة احتلت البرتغال مركز الصدارة في التجارة الشرقية ، وبدأ الهجوم على العرب والمسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي الذي استكماله فرانسيسكو الميدا منذ عام ١٥٠٥ م ، وافونسودا البوكيرك مرة ثانية منذ عام ١٥٠٧ م حتى عام ١٥١٣ م .

أحمد بن ماجد :

للحديث عن علاقة البرتغاليين برأس الخيمة لا بد أن نتطرق الى الحديث عن أحمد بن ماجد مواطن رأس الخيمة . لماذا ؟ لأن الحديث عن دور البرتغال في الدوران حول أفريقيا للوصول الى الهند يبرز قضية هامة تدور حول من أرشد فاسكو دي جاما الى الهند وقاد الحملة البرتغالية الكشفية من «مالندي» بشرق أفريقيا الى «قاليقوت» بساحل الملابار بالهند (الساحل الغربي لشبه القارة الهندية المطل على المحيط الهندي) أهو أحمد بن ماجد هذا الملاح العماني الشهير أم أحد غيره ؟.

من هو أحمد بن ماجد ؟ .. ان

أسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك من أصل عربي ومسقط رأسه مدينة «جلفار» - رأس الخيمة - اشتهر بالملاحة واكتسب خبرة كبيرة في ركوب البحر بين عمان والهند وشرق أفريقيا حتى ذاع صيته ، وقد أطلق عليه لقب «أسد البحر» أو «ليث البحر» .^(٧)

وأما علاقته بالبرتغاليين فترجع الى أنه عايش فترة محاولات البرتغاليين الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا ، وعندما فشل «بارثلميو ديان» الملاح البرتغالي عام ١٤٨٧ م في مواصلة السير باتجاه شرق أفريقيا بعد أن واجهته عواصف عند الطرف الجنوبي لأفريقيا انتقده أحمد بن ماجد في قصيدة من الشعر العامي تعرف بأسم «الأراجيز» جمع أرجوزة ، جاء فيها :

زلوا بها علق الموسم
في عيد ميكال بالتوهم
قام عليها موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبت أدفالههم في الماء
والسفن فوق الماء يا خائي
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك الأرض .^(٨)
وعندما وصل فاسكو دي جاما الملاح البرتغالي الذي نجح في الدوران حول الطرف الجنوبي لأفريقيا وأطلق عليه أسم رأس الرجاء الصالح - كما ذكرنا - الى مدينة «مالندي» بشرق أفريقيا في ١٥ مارس عام ١٤٩٨ م

شغل نفسه بالبحث عن ملاح من هذه المنطقة ليقود رحلته في المحيط الهندي ، وكان ملك «مالندي» يشعر بالود نحو الأفرنج ، فأشار على فاسكو دي جاما بأخذ أحمد بن ماجد مرشداً وقائداً للرحلة ..

وقد رضى فاسكودى جاما كل الرضا عن أحمد بن ماجد خاصة بعد التحدث معه وبعد أن عرض أحمد بن ماجد عليه خريطة لكل الشواطئ الهندية مرسومة بكل وضوح وعندما عرض دى جاما على ابن ماجد « اسطرلابا » كبيراً من الخشب كان قد أحضره معه ، وكذلك اسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم لم يندهش ابن ماجد وقال ان الملاحين العرب يستخدمون أجهزة مثلية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس وخصوصاً النجم القطبى ، كما أنهم يستخدمون أجهزة أخرى غير الاسطرلاب ، وقد عرضها ابن ماجد مما جعل دى جاما يعتبر ابن ماجد ثروة كبيرة^(٩) .

ركب أحمد بن ماجد سفينة القيادة في حملة فاسكودى جاما الاولى الى الهند وقاد الرحلة التى أبحرت من « مالندى » في ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨م متجهة الى الهند فوصلت « قاليقوت » أو « كاليكوت » على الشاطئ الغربى لشبه القارة الهندية في ٢٠ مايو من نفس العام ، أى بعد حوالى شهر ، ولأول مرة وبفضل خبرة أحمد بن ماجد الملاح العربى الخليجى تمهد الطريق البحرى من أوروبا الى ثروات

الشرق الأقصى التى كان الاوروبيون يتحرقون شوقاً اليها ، وإن كان لهذا الحدث تأثير مضاد على الشرق ، فالشعوب المطلة على المحيط الهندى قاست بعدها من ويلات القراصنة والمختلسين والمستغلين ذوى المآرب الهادفة الى الغنى عن طريق الثروة الموجودة على اليابسة ، وكل هذا مصحوب بإرساء قواعد السيطرة البرتغالية فى المنطقة الممتدة من شرق أفريقيا الى الهند^(١٠) .

ونتيجة لأفعال البرتغاليين فى شرق أفريقيا وفى الخليج العربى وفى الهند من أعمال تتصف بالبربرية كقتل الناس وتدمير المدن المزدهرة ، فقد شعر أحمد بن ماجد بتأنيب الضمير على قيامه بارشاد سفن حملة فاسكودى جاما من شرق أفريقيا الى الهند وقد سجل مشاعره الحزينة هذه فى صورة شعرية تنطق بصورة أعمال المستبدين البرتغاليين كما تنطق بعذاب ماجد المضحوك عليه والحسرة والندم على ما أقدم عليه والنقمة والغضب على البرتغاليين .

وقد جاء فى شعره :

وجالكاليكوت خذ ذى الفائدة
لعمام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما
والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام
والناس فى خوف واهتمام
وانقطع المكى عن أرض السامرى
وشد جرد اقون للمسافرى

وخبرنى ما حمله الفرنجى
من جانب السودان شط اللجى
وهو الذي قد قهر المغاربة
واند لس في حكمه مناسبة^(١١)
وهكذا يتضح ان أحمد بن ماجد
الملاح العربي ، هو الذي قاد سفن
حملة فاسكودى جاما الأولى من شرق
أفريقيا الى الهند ، ولا يمكن القاء
اللوم على ابن ماجد لما قام به نحو
البرتغاليين فلم يكن يعلم أن هذه
الحملة مقدمة لحملات عسكرية
معادية للعرب المسلمين في هذه المناطق
سواء في الجزيرة العربية أو في شرق
أفريقيا أو في الهند .

كما لا يمكن لنا الموافقة على ما جاء
في مخطوط « قطب الدين النهر والى »
كاتب القرن السادس عشر من أن كبير
الفرنج (فاسكودى جاما) صاحب
أحمد بن ماجد وعاشره في السكر
فأعلمه الطريق الى الهند في حالة
سكره ، اذ لا يعقل أن يقوم ملاح
بارشاد وقيادة سفن وهو في حالة
السكر^(١٢) .

وكان ابن ماجد ينحدر من أسرة
عمل معظم أفرادها بالملاحة ، فاذا
كان قد أطلق على نفسه لقب « المعلم »
فقد كان أبوه وجده « معلمين » ،
والمعلم في مصطلح أهل البحر
الشخص الذي له المام تام بالسفن أو
بغاطسها اذا كان كبيرا أو صغيرا وله
دراية بعلم الفلك ، وقدرة على تحمل
المسئولية في قيادة السفينة وسلامتها
وأمن من معه من العاملين على
السفينة ، كما يكون على معرفة بمواقع

الموانى والشواطىء المختلفة والجزر
والشعب المرجانية والمياه الضحلة
والهضاب والجبال ، وعليه ان يكون
آخر من يترك السفينة في أى ظرف
كان^(١٣) .

وإذا كان أحمد بن ماجد قد أرخ
لقدوم فاسكودى جاما الى مالندى
والهند عام ٩٠٦ هـ الموافق لعام
١٤٩٨ م ، فقد ذكر عن قدوم الحملات
البرتغالية بعد ذلك وخاصة عامى
١٥٠٠ و ١٥٠١ م فيقول :

وبعد ذا من عام تسعمائة
وست جاءوا الهند يا أخاىة
واشتروا البيوت ثم سكنوا
وصاحبوا وللسوامر ركنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا
ذا حاكم أو سارق مجنونا
وتضرب السكة وسط البندر
بندر كاليكوت بين السفر
ياليت شعرى ما يكون منهم
والناس معجبين من أمرهم^(١٤)
وهكذا أثبت أحمد بن ماجد قدرته
على متابعة الاحداث منذ مقابلته
لفاسكودى جاما في مدينة مالندى
الأفريقية ومصاحبته إياه في رحلته
الأولى الاستكشافية الى ساحل الملبار
بالهند ثم متابعة ما أحدثه البرتغاليون
من سلوك يتنافى مع التحضر الذي
ادعوه عند قدومهم حين هاجموا المدن
الاسلامية والسفن الاسلامية سواء
بشرق أفريقيا أو في البحر الاحمر
والبحر العربي أو في ساحل الهند
الغربي أو في الخليج العربي .
ورغم أن أحمد بن ماجد أرشد

البرتغاليين الى طريق الهند ، فإنه لم يكن يعرف الا أنهم جاءوا للتجارة ولم يكن يعلم نواياهم الشريرة ضد العرب والمسلمين ، ويكفى ابن ماجد فخرا أنه المواطن الخليجي ، الذي ينتسب الى جلفار - رأس الخيمة - شهرته الملاحية في ركوب البحر لمدة ذكرها في أراجيزه تزيد عن خمسين عاما .

رأس الخيمة (الخليج العربي) :

رأس الخيمة أقيمت مكان مدينة جلفار القديمة ، وقد أخذت رأس الخيمة مكان جلفار في زعامة البحر ، أى أن رأس الخيمة حلت محل جلفار اسما ومعنى^(١٥) . وتقع أطلال جلفار القديمة شمال رأس الخيمة بين الرمس والمعبر ، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية لفارس واليها ينسب الملاح العربي الشهير أحمد بن ماجد ، كما سبق أن ذكرنا .

ومن الناحية الجغرافية فإن رأس الخيمة هي أولى المشيخات من ناحية الشرق أو بالأحرى هي أقصى جزء من المشرق العربي ، وتقع بين خطى عرض ٢٥ و ٢٦ شمالا وخطى طول ٦٠،٥٥ شرقا ، وتطل على مشارف مدخل الخليج العربي ، ومضيق هرمز باب السلام ، وتكثر فيها المزارع والبساتين والاشجار البرية التى تضيف على المنطقة جمالا طبيعيا تجتذب سكان الساحل العماني ، وتتمتع مدينة رأس الخيمة بمركزهم

على الساحل العماني من حيث الموقع والطبيعة الجغرافية اذ يشق المدينة لسان مائى عميق (خور) يعتبر ملجأ للسفن ومراكب الصيد .

وتوجد برأس الخيمة عدة آثار لها جذورها التاريخية منها حصن ضابة ، وهو حصن جبلى يقع في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلدة الرمس ، ومنها قصر الزباء الذي يقع فوق مرتفع جبلى أيضا ومن بقاياها أجزاء من السور المحيط وبعض البرك وخزانات المياه ، واحدى الغرف والقاعات .. ومنها آثار مدينة جلفار الباقية بعد معارك الاساطيل الغازية للمدينة^(١٦) .

وقد تعرضت رأس الخيمة (جلفار) للغزو من جانب البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر بعد ما سيطروا على مياه المحيط الهندي في اطار الهجوم على مملكة هرمز الاسلامية المزدهرة وبقية مشيخات الخليج ، فقد كانت مملكة هرمز تقع عند مدخل الخليج العربي في اتصاله بالمحيط الهندي وتضم جزيرة هرمز وما يحيط بها من جزر صغيرة بالاضافة الى الشريط الساحلى العربي المواجه لها ..

وكانت سياسة ألفونسو البوكيرك الاستعمارية تقوم على أساس ان استخلاص الهند للبرتغال وحدها لن يتحقق الا بالقضاء على الكيانات العربية والاسلامية بالخليج العربي والبحر الاحمر ومن ثم حاول الاستيلاء على مسقط عام ١٥٠٧م ثم

تحول الى هرمز حتى انتصر على ملكها وفرض عليه دفع اتاوة سنوية للبرتغال ، وفي عام ١٥١٥م أصبح للبرتغال قلعة في هرمز تشرف على مدخل الخليج وتؤكد سيطرة البرتغال على هرمز . وبناء القلاع البرتغالية يحقق استراتيجية البوكيرك الرامية الى السيطرة على المناطق الافريقية والهندية والخليجية دون أن تتحمل البرتغال تكاليف انشاء مستعمرات .. وتابع البوكيرك سياسة عدوانية تخريبية ضد السفن والموانى العربية ، خاصة بعد أن استولى على سوقطرة الواقعة بالقرب من مدخل البحر الاحمر الجنوبي عام ١٥٠٧م وأقام بها حصنا عسكريا للبرتغاليين يهاجمون منه السفن العربية المتجهة للبحر الاحمر ، ويهاجم الساحل العربي الجنوبي حتى رأس الحد بالساحل العماني الذي كان خاضعا لسيادة مملكة هرمز فهاجمه وأضرم النار فيه وأغرق سبع عشرة سفينة كانت راسية بميناء رأس الحد ، ثم هاجم مدينة مسقط وضربها بالدافع فأحرق كثيرا من مبانيها ومسجدها وجميع السفن الراسية بالميناء ، وأخذ من أهلها أسرى كثيرين استخدمهم في سفنه وترك الاطفال والنساء والرجال الضعاف بعد أن شوههم أوجدع أنوفهم وقطع أذانهم . وكانت مسقط تخضع لمملكة هرمز وتدفع جزية ملك هرمز^(١٧) .

وكان الهجوم البرتغالى على مسقط - رغم عدم الاستقرار بها -

بمثابة إنذار لمملكة هرمز التى قاومت ما وسعتها المقاومة حتى اضطرت لتوقيع اتفاق مع البوكيرك كما ذكرنا يدفع بموجبه ملك هرمز اتاوة سنوية ويسمح باقامة حصن برتغالى في أراضى المملكة . وكان هذا الاتفاق بداية سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج ، تلك السيطرة التى استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، على الرغم من الثورات التى لم تتوقف من الأهالى وسكان الساحل العربى المواجه للجزيرة .

وبعد عام ١٥١٥م تأكدت السيطرة البرتغالية على مملكة هرمز ، ونجح البوكيرك في هذه السنة في الاستيلاء على جزيرة قشم الى جانب جزء من ساحل فارس . الى الشمال والشمال الغربى من هرمز وذلك من أجل تقوية مركزه في الخليج ولتأمين التموين من مياه الشرب والمواد الغذائية للقاعدة البرتغالية في هرمز^(١٨) وبذلك سيطر البرتغاليون على الموانى الرئيسية على جانبى الخليج ، فكانت هرمز على الجانب الفارسى ومسقط والبحرين على الجانب العربى قواعد ارتكازهم الاساسية الى جانب السيطرة على مياه الخليج واحتكار الابحار فيه وأخذ البرتغاليون ينظمون العمليات التجارية في المنطقة بإجازات يمنحونها ، ويتحكمون في مدخل الخليج عن طريق قلاعهم القوية في هرمز ولهذا أصبح من المتعذر على أى من مشيخات الخليج وأقطاره تحدى قوة البرتغال البحرية خلال تلك

الفترة^(١٩) .

وتأكيدا للسيطرة البرتغالية في المنطقة فقد نقل البوكيرك مركز القيادة والسيطرة من كوشين الواقعة جنوب ساحل الملبار الى ميناء جوا Goa الواقع وسط هذا الساحل والذي أصبح منذ عام ١٥٠٩م قاعدة البرتغاليين الرئيسية في شبه القارة الهندية ومن هذا الموقع اندفعوا أكثر ناحية الشرق الى جزر التوابل (اندونيسيا والملايو) ليؤسسوا لمائة السنة التالية احتكارا لتجارة التوابل مع أوروبا قائما على المحطة التجارية الكبرى التي أسسوها في ملقا Malacca^(٢٠) . منذ عام ١٥١١م .

ومنذ نقل البوكيرك مقر إدارة الممتلكات البرتغالية في الشرق الى ميناء جوا عام ١٥١٠م ازدادت التوسعات البرتغالية المقرونة بالارهاب والقسوة ، مما جعل سلطان كجرات الهندي يوافق على اقامة محطة برتغالية تجارية وحصنا للبرتغاليين في ديو ، كما عقدت كاليكوت صلحا معهم وسمحت لهم باقامة قلعة في أراضيها ، ومن جوا اتجه الى احتلال ميناء ملقا - كما ذكرنا - الذي يعد من أهم الموانئ التجارية في العالم حيث كانت أهم المراكز لتجميع منتجات الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الاقصى حتى الصين شرقا^(٢١) .

وكان البوكيرك قد حدد النقاط الرئيسية التي تكون قواعد

امبراطوريته الجديدة والتي تتمثل - هذه المراكز - فيما يلي :

١ - هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي .

٢ - سوقطرة أو عدن للسيطرة على مدخل البحر الاحمر الذي كان يمثل طريق الاتصال مع أوروبا عن طريق برزخ السويس .

٣ - ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الذاهبة أو القادمة من المحيط الهندي والشرق الاقصى .

٤ - سيلان وجوا في الهند لتكون مركز القيادة والمراقبة والادارة للحكام البرتغاليين في المنطقة^(٢٢) .

وكانت السيطرة على الخليج العربي - كموقع متوسط - تمثل أهمية كبرى للبرتغاليين ومن ثم تضررت أقطاره من السياسة البرتغالية الارهابية القاسية ومنها مدخل الخليج حيث موقع رأس الخيمة الحالية .

الهند :

كانت الهند معروفة لدى أوروبا منذ أقدم عصور التاريخ ، وما وصول الاسكندر الاكبر الى هذه البلاد سوى دليل معرفة الأوروبيين بالهند وحضارتها القديمة ، ولذلك لاريد ان وصول فاسكودي جاما الملاح البرتغالي على رأس حملة بحرية الى ميناء كاليكوت على الشاطئ الجنوبي الغربي للهند في ٢٧ مايو عام ١٤٩٨م

يسجل نقطة تحول في تاريخ بلاد الهند وأوروبا^(٢٣) .

وفي كاليكوت استقبل حاكمها الزامورين فاسكودي جاما ورجاله متسائلا عن سبب مجيئهم الى بلاده فأجاب فاسكودي جاما بإيجاز « المسيحية ثم البهارات » ولذلك عندما عاد الى لشبونة بحملته كانت سفنه محملة بشحنة كبيرة من البهارات والاحجار الكريمة ، ثم عاد البرتغاليون في السنوات التالية وأنشأوا أول مستعمرة لهم في « كوشين » الى الجنوب من كاليكوت . وكان مجيء فاسكودي جاما الى كاليكوت قبل دخول بابر الى دلهي بنحو ثلاثين سنة^(٢٤) .

وكان يحكم الهند في تلك الفترة ملوك الطوائف بعد غزو تيمور لنك لشبه الجزيرة الهندية عام ١٣٩٨م الذي ادى الى تفكك الدولة الاسلامية التي بدأ تأسيسها على يد محمود الغزنوي أواخر القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، والتي أصبحت في أيدي الغوريين في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي ، ثم المماليك وأولهم قطب الدين أيبك أوائل القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، وغير هؤلاء مثل الخليجين وأل تغلق حتى ظهور ملوك الطوائف أوائل القرن التاسع الهجري الموافق لأوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

ويهمنا من امارات الهند تلك التي كان لها علاقات بالبرتغال ، وأعني تلك الواقعة غرب شبه القارة الهندية على ساحل الملبار ، ومن هذه الامارات « الكجرات » التي تعد ثاني امارات الهند الاسلامية بعد « دلهي » حيث كانت باب التجارة الهندية الغربي منذ القدم ومنفذها الى أفريقية وآسيا ، فمن شاطئها عند « سورات » وخليجها « كمباي » كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة الى اوروبا عبر الخليج العربي والبحر الاحمر .

والى سلطان الكجرات محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، الذي يعد أعظم حكامها يرجع الفضل في مقاومة الوجود البرتغالي بساحل الهند الغربي ، ذلك الوجود الذي كان معاديا للإسلام والمسلمين ، مما دفع بالسلطان محمود أن يستنجد بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري في مصر لمحاربة هؤلاء الدخلاء الذين كانوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج^(٢٥) .

وكانت الهند خلال القرن الخامس عشر منقسمة يتنافس حولها سلاطين الأتراك والافغان ويحتفظون للهندوس بالوظائف الصغيرة ، وبعد أن تمكن « بابر » الحفيد الخامس لتيمور لنك - من مد حكمه من « سمرقند » الى « كابل » الى « دلهي » أصبحت كل الهند تحت حكمه وحكم حفيده « أكبر » ما عدا أقصى جنوب شبه

الثانية وكابراى وفرنسسكو أليدا
وافونسودا ألبوكيرك^(٢٧) .

وذلك أنه نتيجة للروح العدائية
الصليبية التى يكنها البرتغاليون
للمسلمين فقد استجاب السلطان
الملوكى قانصوه الغورى سلطان دولة
الممالك فى مصر والشام الى دعوة
الامراء الهنود والعرب فأقام ترسانة
بحرية فى السويس لاعداد اسطول
يتجه الى المياه الهندية للتعامل مع
الغزو البرتغالى للمنطقة ، الى جانب
انشاء دور - للصناعة فى كل من
الروضة وبولاى بمصر^(٢٨) .

وعندما تهيأت القوة للقتال التى
أمر الغورى باعدادها عين لقيادتها
الأمير حسين الكردى ، وخرجت من
القاهرة فى ٦ جمادى الآخرة عام
٩١١هـ الموافق لعام ١٥٠٥م الى بلاد
الهند لمحاربة البرتغاليين واجلائهم
عن المراكز التى نزلوا بها فى
الشواطىء الهندية ، الى جانب
تحصين ميناء جدة وعدن وسواكن
وعندما وصلت الحملة الى الهند
تحالف الامير حسين الكردى مع بعض
الامراء الهنود مثل أمراء كجرات
وبيجامور وأحمد ناجايال وكاليكوت
وكمران واستطاعوا الحاق الهزيمة
بالبرتغاليين فى شوال ٩١٤هـ الموافق
عام ١٥٠٨م ، ولكن التحالف
الملوكى الهندى استقر بجزيرة ديو
حيث فاجأهم فرنسسكو أليدا بهجوم
خاطف انتصر فيه على هذا التحالف فى
٣ فبراير ١٥٠٩م الموافق لعام

القارة الهندية فأصبح الخان
الاعظم ، وبذلك تمكن أحفاد المغول
من حكم الهند ، التى صارت
امبراطورية المغول الكبرى التى بلغت
مساحتها مليون ونصف مليون
كيلومتر مربع وبلغ عدد سكانها مليون
نسمة^(٢٦) .

وكان ساحل شبه القارة الهندية
الغربي يخضع لبعض الأمراء
الصغار وهى المنطقة المعروفة بأسم
« ملبار » أو « كيرالا » الممتدة من
« منجالور » الى « رأس قومورين »
وهى منطقة الفلفل المثلث التى ظلت
السفن زهاء ألفى سنة من الزمان تطلع
منها دون توقف الى الخليج العربى
والبحر الاحمر وكان أهم حاكم بتلك
المنطقة هو الزامورين صاحب
كاليكوت التى كانت المركز الاساسى
لتجارة التوابل سواء المنتجة من شبه
قارة الهند أو المنقولة اليها من جزر
الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى
وكل ذلك جعل كاليكوت تعيش عصر
رخاء .

وبسبب موقع كاليكوت استفادت
من الرياح الموسمية فى منطقة المحيط
الهندي كما كان لها علاقات بتجار
القاهرة والاسكندرية ومدينة فاس
المغربية ، ورغم أن الزامورين كان
هندوكيا الا أن علاقته بالمسلمين كانت
جيدة ، ولذلك كان له دور مع المسلمين
فى مقاومة الوجود البرتغالى فى المياه
الهندية ذلك الوجود الارهابي الذى
مثله كل من فاسكودى جاما فى رحلته

٩١٥هـ ، واضطر الامير حسين الكردي للانسحاب بما سلم من سفنه الى جدة (٣٩) .

وكان للخيانة دور في هزيمة التحالف المملوكي الهندي وقد تمثلت الخيانة في أن «مالك إياس» وهو أوروبي حاكم ديو من قبل ملك جوجيريات (أو كجرات) انضم سرا الى البرتغاليين وحرّم الامير حسين الكردي من المدد والمؤن ، فأضطر حسين الكردي أن يعتمد في مدده على سفن الزامورين ونتيجة لانسحاب حسين الكردي بعد هزيمة ٢ فبراير ١٥٠٩م تأكدت ادعاءات البرتغاليين بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية (٣٠) . واستمرت سياسة البرتغاليين في محاربة الاسلام والمسلمين متعاونين في ذلك مع بعض الامراء الهندوس ، ومن ذلك تأخر سقوط ديو تحت سيطرة البرتغاليين الى عام ٩٤٢هـ الموافق لعام ١٥٣٥م . وبعد معركة ديو تم تعيين إفونسودا البوكيرك نائبا للملك البرتغالي في كوشين بدلا من فرنسيسكو الميدا (٣١) .

تعليق :

وهكذا يتضح الدور البرتغالي الاستعماري في الشرق سواء بشرق أفريقيا أو في الهند مروراً بالبحر الاحمر والخليج العربي ، وحيث كان هذا الدور البرتغالي معاديا للاسلام والعرب فقد قاسى منه عرب الخليج كما

قاسى منه مسلمو شرق أفريقيا وشبه القارة الهندية ، واستمرت هذه المعاناة أكثر من قرن ونصف حتى تم إجلاء البرتغاليين عن منطقة الخليج العربي وإن ظلوا يعتبرون مدينة جوا الهندية مركزا استعماريًا لهم حتى الربع الأخير من القرن العشرين . وإذا كانت مدينة رأس الخيمة بزعامة القواسم قد ظهرت ككيان سياسى منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى فإن تاريخها القديم شاهد على وجودها وإن كان باسم جلفار ، ذلك الاسم الذي حمل شهرة أحد أبنائه ليث البحر شهاب الدين أحمد بن ماجد الملاّح الذي ذاع صيته طوال القرن الخامس عشر الميلادى ، وعندما نتابع نشاط الملاّحين القواسم في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر في عملياتهم البحرية الجريئة التى نعرفها بأسم الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن المعادية للاسلام والمسلمين ، نتذكر احمد بن ماجد ومن جاء من بعده في مواجهة الارهاب البرتغالى في الخليج العربى والمحيط الهندى .

وعندما نلاحظ الآن توترا بين المسلمين والهندوس في شبه قارة الهند نتذكر تلك الايام الخوالى قبل وأثناء الغزو البرتغالى لساحل الملبار بالهند واتفاق الهندوس مع البرتغاليين ضد المسلمين

د. رافت غنيمي الشيش
استاذ التاريخ الحديث المعاصر
جامعة الزقازيق - مصر

المراجع

- ١ - ك . م . باننيكار : آسيا والسيطرة الغربية - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٥ .
- ٢ - جيمس دفي ترجمة الدسوقي حسين المراكبي : الإستعمار البرتغالي في أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٣ .
- ٣ - د . رافت غنيمي الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ .
- ٤ - د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا ص ٢٢ .
- ٥ - د . رافت الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر ص ١٩ .
- ٦ - د . رافت الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ص ٥٤ - ٥٥ .
- ٧ - أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار ص ٨٤ .
- ٨ - نفس المرجع ص ٤٠ .
- ٩ - د . رافت الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر ص ٢١ .
- ١٠ - أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .
- ١١ - نفس المرجع ص ٤٣ .
- ١٢ - نفس المرجع ص ٨٧ .
- ١٣ - د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية . من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية - أغسطس ١٩٨٧ م .
- ١٤ - أحمد بن ماجد : المرجع السابق ص ٨٨ .
- ١٥ - سالم بن حمود السيابي : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ، مراجعة أحمد التدمري - رأس الخيمة ١٩٧٦ م ص ١٩ .
- ١٦ - نفس المرجع ص ٢١ - ٢٧ .
- ١٧ - وزارة الاعلام والثقافة مسقط : عمان وتاريخها البحري ص ٥٨ .
- ١٨ - لوريمر : دليل الخليج . مجلد أول .
- ١٩ - .
- ٢٠ - المرجع السابق ص ٢١ .
- ٢١ - د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥) القاهرة ١٩٧٤ م ص ٦٧ .
- ٢٢ - محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج

- العربي - جذوره التاريخية وابعاده . القاهرة ١٩٨٤م ص ١٣٠ .
- ٢٣ - ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ١٩ .
- ٢٤ - محمد مرسى أبو الليل : الهند تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٧٧ .
- ٢٥ - أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧ جزء أول ص ١٨٢ - ١٨٣ .
- ٢٦ - د . جلال يحيى : التاريخ الأوروبي الحديث ، الاسكندرية ، ص ٣٩٢ .
- ٢٧ - ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٣٦ - ٤٢ .
- ٢٨ - د . أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام جامعة بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢٣ .
- ٢٩ - د . محمد عبدالعال : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٤٩٨ .
- ٣٠ - ك.م. بانيكار : المرجع السابق ص ٤٤ .
- ٣١ - د . السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٦٤ .

المراجع

- ١ - صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ م . بغداد ١٩٧٦ .
- ٢ - سالم حمود السيابي : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم . مراجعة أحمد التدمري رأس الخيمة ١٩٧٦ م
- ٣ - محمد مرسى أبو الليل : الهند ، تاريخها ، تقاليدها ، جغرافيتها ، القاهرة (الألف كتاب) ١٩٦٥ م .
- ٤ - ك . م . بانينكار ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد مراجعة أحمد خانكي : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٥ - د . أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم جزآن ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٦ - جيمس دى ترجمة الدسوقي حسين المراكبى : الاستعمار البرتغالى في أفريقيا القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٧ - د . السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥ م) القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٨ - د . أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، جامعة بيروت ١٩٧٢ م .
- ٩ - د . محمد عبدالعال : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه الاسكندرية ١٩٨٠ م .
- ١٠ - د . رافت غنيمى الشيخ : أفريقيا في العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥ م .
- ١١ - د . رافت غنيمى الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر القاهرة ١٩٨٥ م .
- ١٢ - د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة ١٩٧٢ م .
- ١٣ - أحمد بن ماجد : ثلاث أزهار في معرفة البحار . مخطوط تحقيق المستشرق الروسى شوموفسكى ترجمة وتعليق د . محمد منير مرسى القاهرة ١٩٧٤ م .
- ١٤ - د . حسين أمين : أحمد بن ماجد وجهوده في الملاحة البحرية ، من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية أغسطس ١٩٨٧ م .
- ١٥ - وزارة الاعلام والثقافة - مسقط سلطنة عمان - عمان وتاريخها البحرى .
- ١٦ - لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخى - الجزء الاول : تعريب ونشر الدبوان الاميرى القطرى .
- ١٧ - محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندى والخليج العربى ، جذوره التاريخية وأبعاده ، القاهرة ١٩٨٤ م .